المواقف الكلامية عند الجاحظ (دراسة نصية تداولية)

رياض بن صالح بن إبراهيم الذيب

خلاصة البحث

هذا بحث في الاستعمال، يستهدف بالحديث تداوليات أفعال الكلام، ويأخذ بعين الاهتمام المتكلم والمتلقي والسياق، وشرائط استعمال اللغة في المواقف الاتصالية المختلفة لتحصيل تواصل وتفاهم جيدين. مقتفياً المنهج الوصفي التحليلي.

وقد قدّم الباحث بمفهوم الموقف الكلامي والكفاية الاتصالية (التداولية)، ثم البحث في جوانب الكفاية الاتصالية لدى الجاحظ من خلال المواقف التي أوردها في «البيان و التبيين» و«الحيوان»، والكشف عن نظرته العامة التي شملتْ الموقف الاجتماعي كاملاً.

وما كشفه الباحث في هذا البحث: الرؤية التداولية المتبصرة للجاحظ حين ألمّ بالمرتكزات الأساسية في عملية التواصل، وعرّف البلاغة من خلال رؤية تداولية، وراعى المبادئ التخاطبية بين المتكلم والمستمع. واهتم بسياق الحال الذي عدّه أصلاً مهماً وركناً مؤثراً في أي موقف كلامي وأي عملية تواصلية.

كما أبرز الباحثُ عنايةَ الجاحظ بالمطابقة والموازنة الفنية بين مختلف عناصر الحديث، فالسخيف من الألفاظ يصلح للسخيف من المعاني، والمواءمة بين الحديث والسياق فلكل مقام مقال، ومطابقة الفعل الكلامي لمفردات السياق، من مثل مراعاة المخاطب وحاله ومستواه وغير ذلك. وكل هذا القضايا لدى الجاحظ التي أعاد الباحث قراءتها، هي مما يشغل الباحثين المحدثين في التداولية وعلم النص، مما يكشف عن رؤية تداولية أصيلة للموقف الكلامي سبق إليها الجاحظ، وعني بها بشكل واضح، وإن لم يصرح به تصريح اللسانيات الاجتماعية و التداولية. وهي صورة للازدهار والتطور الذي نعمت به الثقافة العربية إبان عصور نهضتها.

أسباب اختيار الموضوع :

- × ضرورة ربط اللغة بمقاماتها الاجتماعية للتعرُّف على العلاقات الاجتماعية، ومدِّ التحليل اللغوي ببعد يتجاوز المدى الذي بلغه علم اللسان الحديث.
- × الرغبة في معاودة البحث في النصوص العربية القديمة وقراءتها في ضوء العلوم الحديثة، لضمان استمراريتها، وإبراز عراقة التفكير اللغوي عند العرب.
- × لَفْتُ الأنظار إلى الجاحظ الذي عُنِي بهذا المجال عناية خاصة، وضرب بسهم وافر فيه، وإبراز الآراء المتطورة لديه، حيث كانتْ لديه النظرة العميقة والمادة المتنوعة في هذا الميدان.

مشكلة الدراسة :

تركزت الدراسات التراثية والنحوية على وجه الخصوص على معالجة جانب واحد في الحدث الكلامي، وهو الصواب اللغوي. وتوجهت غالبا إلى المتحدث وكأنما هو مبتدأ العملية الاتصالية ومنتهاها. بينما الصواب اللغوي ما هو إلا واحد من مرتكزات الكفاية الاتصالية، وثمّة قواعد أخرى للكفاية الاتصالية، من لغوية وأسلوبية و اجتماعية وثقافية للغة، لا تقل أهمية عن الصواب اللغوي، كما أن المخاطب ركن واحد من أركان العملية الاتصالية، وهناك أركان أُخر لها نفس المنزلة في العملية التخاطبية، منها المتلقي الذي يتقاسم مع المتحدث سياق المعرفة الخاصة والعامة. والسياق الاجتماعي والثقافي.

فهل نجد في تراثنا العربي الزاخر ولدى علمائنا المتقدمين من عُني بهذه الجوانب من خلال نظرة تداولية متكاملة ؟ وعالج بالدرس والتنظير مقدرة المتكلم على إنتاج منطوقات مناسبة لأنماط المواقف الاتصالية المختلفة ؟

وهل ثمة دراسة أو دراسات في كيفية كون الاتصال شيئاً أوسع من

مجرد القول؟ ثم دراسة الشروط التي تجعل المنطوقات ناجحة إنجازياً، ودراسة العلاقة بين أفعال الكلام وسياقاتها غير اللغوية.

هذه التساؤلات سنبحث لها عند إجابات من خلال قراءة نصية تداولية في كتاب «البيان والتبيين» و«الحيوان» لدى الجاحظ.

الهدف من البحث :

يمكن إيجاز الهدف من البحث في الكشف عن الآراء التي حواها كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ فيما يتعلق بالقدرة على استعمال اللغة في تفاعل اجتماعي يواءم فيه بين المنطوقات والمقاصد وسياق الاتصال، لإظهار الآراء المتطورة التي سبق إليها في مفاهيم الكفاية الاتصالية ومتعلاقاتها، و التي تلتقي مع كثير من نظريات المدارس اللسانية والتداولية الحديثة، بهدف الاستفادة منها. وإبراز عراقة الفكر العربي واستمراريته.

المواقف الكلامية

هذا بحث في الاستعمال، يقتفي منهجاً وصفياً تحليلياً، ويستهدف بالحديث تداوليات أفعال الكلام، ويأخذ بعين الاهتمام المتكلم والمتلقي والسياق، وشرائط استعمال اللغة في المواقف الاتصالية المختلفة لتحصيل تواصل وتفاهم جيدين. وسنبدأ بمفهوم الموقف الكلامي والكفاية الاتصالية (التداولية). ثم البحث في جوانب الكفاية الاتصالية لدى الجاحظ من خلال المواقف التي أوردها في «البيان و التبيين» و«الحيوان»، والكشف عن نظرته العامة التي شملتْ الموقف الاجتماعي كاملاً.

وإليك تفصيل الحديث:

١ : الموقف الكلامي والكفاية الاتصالية :

الموقف الكلامي أو السياق غير اللغوي عُرِفَ عند قدامى لغوييننا بالمقام(١) ويهدف إلى إبراز الدور الاجتماعي لكل من المتكلم والمستمع والحضور وسائر المشتركين في الموقف الكلامي، والنظر إلى مجمل الظروف المحيطة والأوضاع المؤثرة في عملية الكلام. وقد عُرف ذلك عند أصحاب النظرة الاجتماعية للغة بالسياق غير اللغوي. وهو المقام أو المناسبة التي يقال فيها هذا الكلام، ويسمى (سياق الموقف) Context of Situation أو The non- linguistics context (٢)

ومحددات هذا السياق عناصر عديدة؛ أولها المتكلم نفسه؛ هل هو ذكر أم أنثى؟ صغير السن أم كبير؟ واحد أم اثنان أم جماعة أم جمهور؟ جنسيته؟ دينه؟ ونبرة صوته؟ ومكانه الاجتماعي ....الخ هذه الصفات التي تميزه من غيره. ثم المستمع وتنطبق عليه كل تلك التساؤلات والأوصاف. ثم علاقة المتكلم بالمستمع من حيث القرابة أو الصداقة أو زمالة العمل أو حتى العداوة، ومن حيث المعرفة وعمقها أو سطحيتها، ومن حيث القوة والمكانة أو المركز الاجتماعي أو المالي أو الوظيفي أو السياسي. ثم موضوع الكلام، وفي أي جو يقال، وأي مكان وزمان؟ وكيف يقال ؟ وما الداعي لقوله؟ وغير ذلك من العناصر التي تلف المقام وهي كثيرة جداً. وكل عنصر منها يؤثر تأثيراً مباشراً في كيفية قول الكلام وتركيبته ومعانيه ودلالاته والغرض من قوله وتأثيره وغير ذلك. وهذه هي القرائن الخارجية المؤثرة في أي نص(٣).

والاستجابة التلقائية لدى أطراف الحديث تكون ذات ارتباطات بكل هذه العناصر الآنف ذكرها، وهي عناصر الموقف الكلامي، ويكون «فهم المعنى في ضوء العلاقة بين العناصر اللغوية والسياق الاجتماعي، بحيث تتحدد معاني تلك العناصر وفقاً لاستعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة» كما يقول فيرث(٤).

هكذا يبدو الموقف الكلامي، مجموعة من العناصر المتنوعة والمختلطة، وأهم مرتكزات الموقف الكلامي هي الكفاية الاتصالية عند استعمال اللغة في مواقف ملموسة، وهي درجة تعلو في منزلتها الكفاية اللغوية المعهودة، وتعني تحديداً: القدرة على استعمال اللغة في تفاعل اجتماعي يواءم فيه بين المنطوقات والمقاصد وسياق الاتصال. من حيث وعي الفرد بالقواعد الحاكمة للاستعمال المناسب في الموقف الاجتماعي.

ويُعزى فضل السبق في تدشين هذا المصطلح إلى عالم اللسانيات الأمريكي Dell Hymes (ديل هايمز) ، ففي كتابه «علم اللغة الاجتماعي» Sociolinguistics أورد ديل هايمز دراسة بعنوان On Communicative Competence (الكفاية الاتصالية)

مقابلاً بها مفهوم كفاية تشومسكي، وقاصداً بها أن يشمل الإلمام بقواعد علم اللغة الاجتماعي، أو مناسبة الحديث للسياق الاجتماعي بالإضافة إلى الإلمام بالقواعد النحوية. ورأى أن الكفاية الاتصالية هي المعرفة بالقواعد النفسية والثقافية والاجتماعية التي تتحكم في استعمال الكلام في إطار مجتمع معين(٥).

ولا تبنى الكفاية الاتصالية على أساس المعرفة النحوية فحسب، ولكنها تبنى أيضاً على أساس معرفة وجوه التناسب الاجتماعي والموقفي للأحداث اللغوية، وقدرة على فهم البدائل اللغوية المناسبة اجتماعياً واستعمالها(٦). وهذه الأمور تُكتسب من مخالطة الناس والبصر بالقوانين الاجتماعية ومعرفة الأعراف التي تمثل خلفية لكل مجتمع.

وتقاس قوة الكفاية الاتصالية التي هي مجموع القواعد اللغوية والأسلوبية والاجتماعية والثقافية للغة، بالوعي التداولي الذي يجعل المتكلم ناجحاً في سياقه الاتصالي، من ذلك أن يعي المتحدث المناسبة الحالّة ويربط أثر الحديث بها، ومن ذلك أن يختار المتحدث لمنطوقاته سياقاتها الاتصالية الخاصة، بأن يدرك المتكلم كيفية استقبال المخاطب للمنطوق.

ما نزمع القيام به بعد هذه الوقفة السريعة مع المفاهيم المرتبطة بموضوع البحث تحليل مقولات الجاحظ في ظل سياقاتها الموقفية أو (المقامية)، حيث إن الاختيارات الأسلوبية لا تحكمها ظواهر اللغة الخالصة فحسب، بل تحكمها كذلك محددات المقام، التي تحدد الظرف الاجتماعي الذي سيق في إطاره الكلام.

وسنبدأ أولاً بما قاله الجاحظ في الموقف والمقام.

٢: الجاحظ والمواقف الكلامية:

ذكر الجاحظ لفظتي «الموقف» و«المقام» نصاً حين نقل عن ابن المقفع قوله:

«فإنّه لا خيرَ في كلام لا يدلُّ على معناك، ولا يشير إلى مُغْزَاك، وإلى العَمود الذي إليه قصدتَ، والغرض الذي إليه نزَعت، قال: فقيل له: فإنّ مَلَّ السامعُ الإطالةَ التي ذكَرْتَ أنّها حقُّ ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطَيْتَ كلَّ مَقام حَقَّه، وقمتَ بالذي يجبُ من سياسةً ذلك المقام، وأرضيْتَ من يعرف حقوقَ الكلام، فلا تهتمَّ لما فاتَكَ من رضا الحاسد والعدُوّ...»(٧)

إن الموقف الكلامي ومراعاته هو قطب الرحى الذي دار حوله كتاب «البيان والتبيين» بل هو المحور الذي ترتكز عليه البلاغة العربية بعامة، من حيث (إنّ لكل مقام مقالاً) و(لكل كلمة مع صاحبتها مقامٌ) وإن الظواهر اللغوية خاضعة لظروفها المقامية وجوانبها اللغوية وغير اللغوية، و مراعاة هذه الجوانب جميعاً ضرورة لغوية من الوجهة الاجتماعية.

ويشهد «البيان والتبيين» أن الجاحظ قد فطن إلى مبادئ ومعايير اتصالية مهمة، وليس معايير لغوية أو نحوية فحسب، وأوجب على المتكلم مراعاة هذه المعايير الاتصالية حسب الموقف الذي يحيط به، والذي يملي عليه سلوكاً لغوياً معيناً، وإلا فشل المتكلم ضحية إخفاقه التداولي (اللغوي الاجتماعي الاتصالي) مهما كانتْ كفايته اللغوية متفوقة.

وسنكشف عن براعة الجاحظ في هذا الميدان من خلال الحديث عن ثلاث قضايا:

الأولى: البلاغة والكفاية الاتصالية عند الجاحظ.

الثانية: اللحن لدى الجاحظ من منظور تداولي.

الثالثة: التواصل والتعامل الأخلاقي عند الجاحظ من منظور تداولي.

٢-١: البلاغة والكفاية الاتصالية عند الجاحظ:

حينما نقف مع أي تعريف للبلاغة في اللغة العربية وفي غيرها –كما يورد لنا الجاحظ– نجدها غالباً لا تفارق ذكر الحال التي تقال فيها، فبناء النص في الفكر البلاغي وظيفي باتجاه الموقف، ويورد لنا الجاحظ في ذلك روايات عديدة:

«قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفَصْل من الوصل. وقيل لليونانيّ: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكَلام. وقيل للروميّ: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغَزارة يَوْمَ الإطالة. وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟ قال: وضُوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال بعضُ أهل الهند: جِمَاع البلاغة البَصر بالحُجّة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر

بالحُجة، والمعرفة بمواضع الفُرصة، أن تدَعَ الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاحُ أوعَرَ طريقةً، وربما كان الإضرابُ عنها صفحاً أبلَغَ في الدَّرَك، وأحقَّ بالظَّفَر. قال: وقال مَرَّةً: جِمَاع البلاغة التماس حُسن الموقع، والمعرفةُ بساعات القول، وقلة الخَرَقِ (٨) بما التبَسَ من المعاني أو غَمُضَ، وبما شَرَد عليك من اللّفْظُ أو تعذّر. ثم قال: وزَينُ ذلك كلّه، وبهاؤُه وحلاوتهُ وسناؤُه، أن تكون الشّمائلُ موزونةً، والألفاظُ معدَّلةً، واللّهجة نقيَّة، فإنْ جامَعَ ذلك السنُّ والسمتُ والجمال وطولُ الصَّمت، فقد تَمَّ كلَّ التمام، وكمل كلَّ الكمال «(٩)

وهذه الأقوال التي مرت يمكن النظر إليها من زاوية البراعة في تحقيق المتكلم لأغراضه وفق معطيات الموقف، فالوصل في مواضعه والفصل في مواضعه، وليس هناك معايير مطلقة للحديث يصلح لجميع الظروف والأحوال، إنما هو بحسب ظروف الحال، فالاقتضاب مناسب في مواضع لا تصلح لها الإطالة والغزارة، والكناية أليق من الإفصاح في بعض الحالات أو العكس. وهذا كله من قبيل الكفاية الاتصالية التي تعني وعي الفرد بالقواعد الحاكمة للاستعمال المناسب في أيِّ موقف اجتماعي؛ لأن النصوص خاضعة دوماً للموقف المحيط، والموقف متضمن لعوامل تؤثر بشكل جوهري في تشكيل بنية النص، لذا تتوزع النصوص وفق أنماط المواقف (١٠) ولم يكن ذلك غائباً عن ذهنية الجاحظ كما يتبين من هذا النص، ويوضح الجاحظ ما سبق ذكره بنص لابن المقفع، حيث يقول:

«لم يفسِّر البلاغَة تفسيرَ ابنِ المقفَّع أحدٌ قَطُّ، سُئِل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكونُ في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سَجعًا وخُطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامّةُ ما يكون من هذه الأبواب الوحيُ فيها، والإشارةُ إلى المعنى، والإيجازُ هو البلاغة»(١١) فهو يؤكد على أن العوامل التي تتحكم في الكلام ترتبط بجوانب الكلام المختلفة، وهي تختلف من حالة لأخرى، وحسن أداء بعض الناس في بعض المواقف، هو أنهم قد تعلموا بعض المهارات الخاصة والمناسبة للاستخدام في مثل هذه المواقف، بنفس تعلم الطفل للوحدات اللغوية —كما يقول هدسن– (١٢) ذلك لأن الكلام عمل اجتماعي.

وهذا الأقوال التي سردها الجاحظ في تعريف البلاغة تقترب كثيراً مع ما نقله شتيرن عن هايمز بأن الكفاية الاتصالية تعني تملك المواطن (أو الناطق باللغة) الحدس، أو البديهة التي تمكنه عند الكلام من استخدام اللغة، وتفسيرها بشكل مناسب في أثناء عملية التفاعل، وفي ضوء السياق الاجتماعي، فيعرف الفرد بدقة متى يتكلم؟ ومتى لا ينبغي أن يتكلم ؟ وماذا يُتكلم حوله؟ ومع من؟ ومتى؟ وأين؟ وبأي طريقة كان أسلوب الحديث؟

و لذلك قال فيرث:كل نص إنما يعتبر من مكونات ظرف معين، فلا يمكن بحال نكران تأثير دلالة سياق النص اللغوي وسياق الموقف الملابس له على العناصر النحوية والإبلاغية من الاستماع أو الرد، ومن حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير والإيجاز والإطناب وغير ذلك.

وإن الشخص الماهر في استخدام لغته وتفاعله مع الآخرين، يمكنه التعامل مع الموقف الواحد بصيغ لغوية متنوعة، كما يمكنه التفاعل مع المواقف المتشابهة بطرق مختلفة بحسب المقام وظروف الحال التي تملي عليه تصرفاً معيناً. وقد انتقد الجاحظ فئة من الأعراب كانت تعمد إلى غريب الألفاظ والمعاني المبهمة مع عامة الناس وتولع بالتفنن اللغوي، وعلل ذلك بأن «التَّشادق مع غير أهل البادية بُغْض»(١٣)

وثمّة شواهد أخرى ساقها الجاحظ، ونبه من خلالها إلى أهمية مراعاة الحال ومناسبة الحديث للسياق، لتكون مؤثرة بما هي أفعال، وبما تؤدي إليه من نتائج، وتأمل قوله: «وَالْمَعْنى لَيْسَ يشْرُف بأنْ يَكُون مِنْ مَعَاني اَلْخَاصَّة، وَكَذَلكَ لَيْسَ يتضع بَأن يَكُون مِنْ مَعَاني اَلْعَامَّة، وإنما مَدَار اَلشَّرَف عَلَى اَلصَّوَاب وإحراز اَلْمَنْفَعَة مَعَ مُوَافَقَة الحال وَمَا يَجِبُ لِكُلّ مَقَام مِنْ اَلْمَقَال» (١٤)

وفي موضع آخر يقول:«مَدارُ الشّرَف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافَقَة الحال، وما يجب لكلّ مَقام من المقال» (١٥) ويقول: « ومدارُ الأمر على إفهام كلِّ قوم بمقدارِ طاقتهم، والحمل عليهم علَى أقدارِ منازلهم»(١٦)

وكل هذه النصوص تصب في معنى واحد وهو أن يتناسب المقول مع الموقف الحالّ بالعبارات التي تؤدي الغرض وتوضح الدلالة وتحقق المنفعة، والجمع بكفاءة بين معرفة القواعد اللغوية والأعراف الاجتماعية في عملية التفاعل الكلامي بين الأفراد. ومراعاة جانبي الوضوح والمطابقة؛ فالوضوح به تُسد الحاجة اللغوية أو المعنى الوظيفي، والمطابقة بها تُسد الحاجة الاجتماعية أو المعنى الاجتماعي (١٧).

٢-٢: اللحن لدى الجاحظ من منظور تداولي:

لا تبنى الكفاية الاتصالية على أساس المعرفة النحوية فحسب، ولكنها تبنى على أساس معرفة وجوه التناسب الاجتماعي والموقفي للأحداث اللغوية، ذلك أن الكفاية الاتصالية أخذتْ على عاتقها النظرة الوظيفية، من خلال كيفية تحقق الوظائف والمقاصد من خلال وضع العلامات اللغوية في سياقاتها الاتصالية الاجتماعية المناسبة.

والجاحظ يؤكد على أن الصحة النحوية وحدها لا تكفي شرطاً لنجاح المتكلم في الموقف الاتصالي، فقد ذكر في كتاب الحيوان:

« وإذا كان مَوْضِعُ الحديثِ على أَنَّهُ مُضْحِكٌ ومُلْهٍ وداخِلٌ في باب المزَاح والطِّيب، فاستُعْمِلَتَ فيه الإعراب انقَلَبَ عن جِهَته. وإنْ كان في لفظه سُخْف وأَبْدَلْتَ السَّخافَة بالجَزالة صارَ الحديثُ الذي وُضِع على أنْ يسرَّ النُّفوسَ يكْر بها ويَأْخُذُ بأكظامها»(١٨).

فثمة جوانب أخرى في الموقف الاتصالي تكاد تكون أكثر أهمية من مراعاة الصحة النحوية، كما يشير لذلك الجاحظ.

وقد ألفينا للجاحظ رأياً جديداً في طرقه قضية اللحن لم نعهده عند غيره، ذلك أن اللحن في أصل معناه خرق لجانب اللغة النحوي أو الصرفي، لكنَّ للجاحظ رأياً آخر، يمكننا الحكم مطمئنين أنه رأي متطور سابق لعصره بمراحل، وتبرز طرافته من خلال ربطه اللحن بالموقف الذي يلفه، فاللحن ليس على حال واحدة عند الجاحظ، بل يجعل له درجات ومراتب، فمنه المقبول ومنه المذموم، ومنه القبيح ومنه الظريف، وكل تلك الأحوال مرتبطة بحال من يصدر منه اللحن، ونوعية الحديث، وعموم أركان الموقف الاجتماعي المحيط به. إنه يرى أن أقبح اللحن ما كان للأعراب أو المتشادقين في الكلام المدعين الفصاحة، لأن اللحن حينئذٍ يكشف حالهم وينقض دعواهم، يقول:

«ثمَّ اعلمْ أنّ أقبَحَ اللَّحن لحنُ أصحاب التّقعير (١٩) والتقعيب، والتَّشديق(٢٠) والتمطيط والجَهْورة والتفخيم، وأقبَحُ من ذلك لحنُ الأعاريب النّازلين على طُرُق السَّابلة، وبقُرب مَجامع الأسواق»(٢١)

كما أن مثل هؤلاء يفترض بأنهم يجيدون الإعراب.

لكن مجتمع المدينة الذي يضم كل الأجناس والفئات، والكلام يأتي منهم عفو الخاطر، فاللحن منهم أيسر. وفق ما بينه الجاحظ «ولأهل المدينة ألسنٌ ذَلقة، وألفاظٌ حسنة، وعبارةٌ جيّدة، واللَّحن في عوامِّهم فاش، وعلى مَن لم يَنظُر في النَّحو منهم غالب» (٢٢)

وأما الجواري الظراف فاللحن منهن مقبول أكثر من غيرهن، لأنه سجية وطبع، ولا يُنتظر من الجارية غالباً أو الشاب الحَدَث حديث فصيح ملتزم بقواعد الصحة النحوية، يقول:

«واللَّحن من الجواري الظِّراف، ومن الكواعبِ النّواهد، ومن الشَّوابِّ الملاح، ومن ذوات الخُدورِ الغرائر أيْسَر، وربّما استَملح الرّجل ذلك منهنّ ما لم تكن الجاريةُ صاحبةَ تكلُّف، ولكن إذا كان اللحنُ على سجيّة سُكّان البلد»(٢٣)

لأن الجاحظ –كما يبدو- ينظر للمشهد متكاملاً، ويعطي توزيعات متناسبة لجوانب الشخصية وارتباطاتها بعناصر الموقف. فالنظرة لجمال الفتاة وملاحة الشاب تتجاوز الوقوف على لحن ألسنتهم.

وفي مقولته المأثورة في رواية النكت رسم لنا منهجاً واضحاً لا يحتمل اللبس في الموقف الاتصالي، حين قال:

«ومتى سمعتَ - حفظك اللّه - بنادرة من كلام الأعراب، فإيّاك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها؛ فإنَّك إنْ غيَّرتَها بأن تلحَنَ في إعرابها وأخرجْتَها مخارجَ كلام المولّدين والبلديِّين، خرجْتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير، وكذلك إذا سمعتَ بنادرة من نوادر العوامّ، ومُلْحة من مُلَح الحشْوَة والطَّغام، فإيَّاكَ وأن تستعملَ فيها الإعراب، أو تتخيَّرَ لها لفظاً حسناً، أو تجعل لها من فيك

مخرجاً سَرِيّاً؛ فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها، ويُخرجها من صورتها، ومن الذي أُريدَت له، ويُذهب استطابَتهم إياها واستملاحَهم لها» (٢٤)

وهو بهذه المقولة ينبه إلى أن الأخطاء لا تكون لغوية فحسب، بل ربما الأخطاء اللغوية في بعض السياقات تكون مغتفرة، إنما الشأن في مراعاة الحال الاتصالية والسياق التداولي للكلام، وهي أهم وأخطر، ومراعاتها أولى وأجدر؛ لأن بعض الجمل التي تصنف على أنها خاطئة نحوياً أو ناقصة في التركيب قد تكون كاملة في وظائفها الاتصالية التداولية.

ويؤكد هذا المبدأ صراحة في كتاب الحيوان ، حيث يقول:

«وأنا أقول: إنّ الإعرابَ يفسد نوادر المولَّدين كما أنّ اللحنَ يُفْسِد كلام الأعراب لأنّ سامعَ ذلك الكلام إنَّما أعجبتْه تلك الصورة وذلك المخرَج وتلك اللغة وتلك العادة فإذا دَخَلْت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بِسُخْفِه وبعضِ كلام العجميَّة التي فيه حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل وحوَّلتَه إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهلِ المروءَة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظْمِه وتبدَّلَتْ صورته»(٢٥)

هكذا ينظر الجاحظ للصحة النحوية في مواءمتها لمتطلبات الموقف الاتصالي الاجتماعي المتغيرة، وهو في هذه الحكمة التداولية يؤسس لقاعدة تواصلية تسبق عصرها، في ضرورة معرفة الشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة.

٢-٣: التواصل والتعامل الأخلاقي عند الجاحظ من منظور تداولي:

الكلام يُبنى على «العلاقة التخاطبية» المستلزمة لمقام يضمُّ جانبين يُلقي كل واحد منهمًا أقوالاً بغرض إفهام الآخر بطريقة معيّنة، وهو لا ينفكُّ عن أفعال مخصوصة يأتي بها الجانبان بغرض إنهاض أحدهما للعمل وفق المقصود المراد(٢٦).

وإلقاء الأقوال وإتيان الأفعال من طرفي الخطاب يلزم انضباط هذه الأقوال بقواعد تحدد فائدتها التواصلية، تُسمّى «بقواعد التبليغ» والتي يلزم أن تنضبط هذه الأفعال بقواعدها الأخلاقية التعاملية، أو ما يصطلح عليه بـ«قواعد التهذيب»(٢٧)

وهذا ميدان يشغل الباحثين من آفاق عديدة؛ لسانيين واجتماعيين ومناطقة ونفسانين وغيرهم، ويتولى فرع «التداوليات» من اللسانيات النظر فيه، لاختصاصه بدراسة الاستعمالات اللغوية في تعلقها بمقامات الكلام. (٢٨)

ونريد في السطور القادمة أن نذكر أمثلة أخرى ونماذج إضافية ساقها الجاحظ، كشف فيها عن بعض المعايير الكلامية التي يفرضها المجتمع، ثم نقده بعض المواقف التي لم تراعِ السياق الاتصالي التداولي، وسننظر في الضوابط التبليغية التهذيبية التي تخص التخاطب من الأقوال والأفعال بغية حصول تواصل سليم وبناء، وهي:

مراعاة أعراف الاتصال، وتشمل: التأدب وعلاقات القوة، مراعاة المكان، مراعاة نوعية المتحدث إليهم.

وفيما يلي تفصيل الحديث فيها.

٢-٣-١: مراعاة أعراف الاتصال:

وهي قواعد اللياقة الاجتماعية في عملية التفاعل بين الأفراد، التي تتطلب القدرة على الاختيار المناسب للغة والأسلوب في مواقف الاتصال بين الأطراف المشتركة، وسنسلط الضوء على اثنتين منها وفق ما وجدناه لدى الجاحظ، وهما: التحية، وأساليب التأدب وعلاقات القوة بين أطراف الحديث.

٢-٣-١-١: التأدب وعلاقات القوة:

يتضمن التأدب بوجه عام مراعاة مشاعر الآخرين، ويعني لغوياً أن تخاطب الآخرين على ضوء علاقتهم بك، وأما الخيارات اللغوية غير المناسبة يمكن أن تعد خشونة أو قلة أدب. ونحن بحاجة إلى أن نفهم القيم الاجتماعية لمجتمع ما حتى نتكلم على نحو مؤدب(٢٩)

والتأدب من مقتضيات المقام في أي خطاب أيضاً، وهو مرتبط بنوع العلاقة بين المتخاطبين، والقوة التي تحكم العلاقة، ويرى دايمتار أن محددات اجتماعية مثل الاحترام أو الألفة أو الكراهية أو غيرها مثل صيغ التأدب، مما يشخص العلاقة بين المتكلمين، تعد عوامل حاسمة في تحديد السلوك الكلامي.

يقتضي التأدب بأن يلتزم المتكلم

والمخاطب بضوابط التهذيب قدر التزامهما بغايات التبليغ، لتتحقق الغاية التي من أجلها دخلا الكلام (٣٠).

في هذا السياق يذكر لنا الجاحظ أن من سمات التأدب: حسن الاستماع، وعدم المقاطعة وخصوصاً مع من يعلو الشخص سناً أو علماً، ونقل لنا عن الحسن قوله:

«إذا جالستَ العلماء فكُن على أن تسمع أحرصَ منك على أن تقول، وتعلَّمْ حسن الاستماع كما تتعلّم حُسنَ القول، ولا تقطعْ على أحد حديثَه «(٣١)

فكثرة الكلام غير محبذة مع العلماء الذين يفوقون الشخص منزلة، إنما الأليق بالشخص حينها الإنصات وحسن الاستماع، والتكلم بالقدر المناسب.

وساق لنا الجاحظ روايات أخرى في هذا الشأن، منها ماحكاه الجاحظ عن الحارس الذي لم يُدرك الأسلوب المناسب في مخاطبة الأمير في القصة التي ذكرها عن إبرهيم بن السندي: «وحدَّثني إبرهيم بن السندي قال: بينا الحسنُ اللؤلؤي في بعض الليالي بالرَّقَّة يحدّث المأمون، والمأمون يومئذ أمير، إذْ نَعَس المأمون، فقال له اللؤلؤيّ: نمتَ أيُّها الأمير؟ ففتح المأمونُ عينيه وقال: سوقيٌّ واللّه، خُذْ يا غلامُ بيده!! «(٣٢)

فالبعد الاجتماعي بين الحارس والأمير كان يُحتّم أسلوباً مناسباً يُخاطب به الحارس سيّده الأمير، ولم يُحسن الحارس الحديث حينما خاطب الأميرَ بما يخاطب به غيره، ولو كان الحارس أكثر ذكاء واستطاع أنْ يميّز في أسلوب الكلام في حديثه مع الأمير عن حديثه مع أهله وأبنائه وأصحابه لتخلّص من ذلك الحرج.

وهكذا نجد أن اتجاه المتحدث نحو المخاطب فرداً كان أو جمهوراً تتضمن أكثر من بُعد واحد، ومن بين هذه الأبعاد بُعد القوة Power التي تحكم كيفية تفاعلنا مع الآخرين، وهو بُعدٌ يحدد ما إذا كان المتحدث تابعاً أو مساوياً أو متفوقاً على المخاطب، و أيضاً بعد التضامن solidarity وهو البُعد الذي يحدد درجات علاقة المتحدث والمخاطب؛ من كونها وثيقة للغاية أو بعيدة و واهية، ودرجة التعارف، وتوزيع الأدوار، ونوع العلاقة بينهما، وشخصية المتكلم أو السامع، وتكوينهما الثقافي وانتماءهما الاجتماعي أو المهني(٣٣).

ويظهر ذلك بشكل واضح في انتقاء المتحدث للوحدات اللغوية ومصطلحات التخاطب فيختار له لفظ الأستاذ أو السيد أو مناداته باسمه المجرد أو بالمنصب الوظيفي أو العلمي، أو بالكنية أو باللقب. كما يظهر في أسلوب التخاطب وتبادل الرسائل الاتصالية وطريقة الكلام ونبرة الصوت وأسلوب الحديث. وكذا في حالة التعامل مع الجمهور النخبوي الخاص أو العام.

وقد وضّح الجاحظ ذلك بشكل لا يحتمل اللبس في قوله:

«لا يكلِّم سَيِّدَ الأمَة بكلام الأمَة ولا الملوكَ بكلام السُّوقة، ويكونَ في قُواه فضْلُ التصرُّف في كلِّ طبقة، ولا يدقِّق المعاني كلَّ التدقيق، ولا يُنقّحَ الألفاظ كل التنقيح، ولا يُصَفّيهَا كلَّ التّصفية، ولا يهذّبَها غاية التهذيب، ولا يفعلَ ذلك حتى يصادفَ حكيماً، أو فيلسوفاً عليماً ... ومدارُ الأمر على إفهام كلِّ قوم بمقدارِ طاقتهم، والحملِ عليهم علىَ أقدار منازلهم»(٣٤)

فاللغة تجبرنا بل تدفعنا دوماً على تحديد علاقتنا مع من نتحدث عنه وما نتحدث عنه، ومراعاة مكانته الاجتماعية، ومنزلته العلمية. فحين نتكلم مع الأمير أو السيد أو الرئيس ليس كالحال عندما نتحدث مع الصديق أو الزوجة، أوحينما نتحدث مع الخادم والعامل. وحين يوجه خطابٌ إلى جمهور المثقفين لا يكون نوع الخطاب وأسلوبه مماثلاً للموجه لجمهور شعبي من العامة والدهماء كما يُعبر الجاحظ (٣٥).

٢-٣-٢ : مراعاة مكان الاتصال:

المكان -بمعناه الاجتماعي لا الإقليمي- يمثل أهمية اجتماعية لأطراف الموقف الاتصالي، وعلاقته بالموضوع، فيُقبل طرح موضوعات بعينها في كيفيات خاصة، وترفض أخرى ولو كانتْ في ذاتها مقبولة وسليمة. وتُقبل الإطالة والإسهاب في بعضها، ولا تحتمل غير الإيجاز والاختصار في أخرى. فالبيت يختلف عن قاعة الدرس، كما أن مكان العبادة يختلف عن السوق، والحديث في حفل كبير ليس كالحديث في مناسبة صغيرة، وما يكون صالحاً ومناسباً في مكانٍ ما قد لا يكون صالحاً في الآخر(٣٦)

وكان الجاحظ على وعي بكل هذه الظروف المكانية. ولذلك قال: «فأمّا

الخُطَب بين السِّماطَين(٣٧)، وفي إصلاح ذات البَين، فالإكثارُ في غير خَطَل، والإطالةُ في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أنَّ خيرَ أبيات الشعر البيتُ الذي إذا سمِعْتَ صدْرَه عرَفْتَ قافيتَه. كأنّه يقول: فرِّقْ بينَ صدر خطبة النكاح وبين صَدْر خُطْبة العيد، وخُطبة الصُّلْح وخُطبة التّواهُب، حتَّى يكونَ لكّل فنٍّ من ذلك صدرٌ يدلُّ على عَجُزه؛ فإنّه لا خيرَ في كلام لا يدلُّ على معناك، ولا يشير إلى مَغْزَاك، وإلى العَمود الذي إليه قصدتَ، والغرضِ الذي إليه نزَعت» (٣٨)

فهنا الجاحظ يؤكد على وعي المتحدث التداولي، ليكون كلامه ناجحاً في سياقه الاتصالي. ويشير في الفقرة الأولى إلى سياق الحال وفي الثانية إلى سياق النص، حتى يخرج الكلام على نسق متجانس ومعنى مترابط، وذلك كله يجعل له التأثير الأمثل على متلقيه، ومتوافقاً مع المناسبة والمكان الذي يُقال فيهما شكلاً ومضموناً. فالخطب في طولها أو قصرها بحسب مناسبتها وهذا من سياق الحال. ثم ينبه إلى أن الإعلام عن الشيء بغتة ليس مثل الإعلام له بعد التنبيه عليه والتقدمة له (٣٩). وهو ما أشار له في قوله: «وليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك» لتجنب عنصر المفاجأة عند الاستهلال لئلا يُفهم من المتحدث خلاف ما أراد وما يوافق المناسبة، ثم يكون له أثر غير مرغوب فيه، وهذا وعي منه بسياق النص –كما يُصطلح عليه اليوم- . وقد ساق لنا الأثر في أن : «السُّنّة في خطبة النكاح أن يطيل الخاطبُ ويقصِّر المُجيب» (٤٠)

ومن هنا نفهم لماذا كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) شعوره في خطبة النكاح مختلف عن شعوره في خطبة الجمعة. في القصة التي رواها ابن المقفع:

«وسُئِل ابنُ المقفَّع عن قول عمر رحمه اللَّه: ما يتصَعَّدُني كلامٌ كما تتصعَّدَني خطبةُ النِّكاح، قال: ما أعرفه إلا أن يكون أراد قُربَ الوجوه من الوجوه، ونَظر الحداق من قُرب في أجواف الحداق، ولأنّه إذا كان جالساً معهم كانوا كأنَّهُم نُظَراءُ وأَكْفَاء، فإذا عَلاَ المنبرَ صارُوا سُوقةً ورَعيّةً» (٤١)

فللمكان خصوصية معتبرة في أي حديث مكاناً ومناسبةً. ولذلك تتباين مشاعر المتكلم في مكان الحديث كما تتباين مع اختلاف نوعية الحضور. وكل واحد يستوجب أسلوباً معيناً ونوعية خاصة من الخطاب ليكون المتحدث ناجحاً في إنجاز الفعل الكلامي. والجاحظ يشير صراحة لذلك في كتاب الحيوان حيث يقول: «ووجدنا الناسَ إذا خطبُوا في صلح بين العشائر أطالوا وإذا أنشدوا الشعرَ بين السِّماطين في مديح الملوك أطالوا وللإطالة موضعٌ وليس ذلك بخطَل وللإقلال موضعٌ وليس ذلك من عَجْز»(٤٢).

فالإطالة أو الإيجاز بحسب المناسبة والمكان والموقف.

٢-٣-٣: مراعاة مستوى المخاطب:

المستمع، كما هو المتكلم، مسهم في إنجاز الفعل الكلامي؛ لأن الكلام قضية مشتركة بين المتكلم والمستمع، «فإذا لم يكن المستمع أحرص على الكلام من قائله لم يبلغ القائل في منطقه غايته» كما ذكر الجاحظ (٤٣)

والقارئ «للبيان والتبيين» يجد المستمعَ حاضراً في وعي الجاحظ واهتمامه والعناية به بالقدر نفسه من الأهمية الممنوحة للمتكلم، حيث يؤكد دوماً على أهمية مراعاة حال المتلقي ودوره الاجتماعي وسنه ومنزلته وثقافته ووضعه نفسياً وجسمانياً، وتحديد خصائصه كأن يكون من العامة والدهماء، أو من جنس المثقفين (أو الخاصّة كما يعبّر الجاحظ) فيتحاشى بعض الأساليب والعبارات؛ لأنَّ ثمّة موازينَ وأقداراً متفاوتة للمعاني والمستمعين والحالات والمقامات، والتناسب بين كل هذه الأجناس واجب لغوي يقتضيه الظرف الاجتماعي، وتأمل قوله:

«إمَّا عند الخاصَة إنْ كنتَ للخاصَّة قصَدت، وإمَّا عند العامَّة إنْ كنتَ للعامَّة أردت، والمعنى ليس يشرفُ بأن يكونَ من معاني الخاصَّة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكونَ من معاني العامَّة، وإنّما مَدارُ الشّرَف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافَقَة الحال، وما يجب لكلّ مَقام من المقال، وكذلك اللفظ العامّيّ والخاصّيّ، فإنْ أمكنَكَ أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولُطف مَدَاخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تُفْهم العامَّة معانيَ الخاصَّة، وتكسُوَها الألفاظَ الواسطة التي لا تَلطُف عن الدَّهْماء، ولا تَجفُو عن الأَكْفاء، فأنت

البليغ التامّ « (٤٤)

وهنا نجد الجاحظ قد عرض لجملة مسائل، يمكن إيجازها فيما يلي:

أولا : ثمة ارتباط بين اللغة والطبقة الاجتماعية، وحديث عامّة الناس ليس كحديث خاصتهم من العلماء والأدباء ومن في طبقتهم.

ثانياً : ليس هناك أسلوبٌ يستحق الأفضلية المطلقة في الكلام، والمعنى لا يكتسب الشرف في كونه من معاني الطبقة العليا أو الوسطى، إنما مدار الشرف في موافقة الكلام حال المخاطب ومستواه أولاً، ثم مقتضيات المقام ثانياً.

ثالثاً: حين تتمكن من الارتفاع بأسلوبك قليلاً بالقدر الذي تفهم فيه العامة معاني الخاصة، فهنا تكمن الإجادة، لأن المتكلم هنا يعكس الخصائص الاجتماعية التي يريد أن يظهر بها أمام المتلقي، إذ إن الكلام يتم النظر له من زاويتين؛ زاوية المتلقي وزاوية المتحدث ويجب الموازنة عند الكلام بين هاتين الزاويتين (٤٥). وعلى الإنسان أن يقوّم نفسه تقويماً صحيحاً، فيعرف نفسه جيداً كما يعرف الطرف المقابل أو الجمهور الذين يتحدث لهم، وتكوينه الثقافي والاجتماعي، ليلائم بين حديثه والمجلس الذي هو فيه، ويوفق في الموازنة بين أقدار المعاني وأقدار الحالات كما ذكر الجاحظ. لذلك يقول: «وليس في الأرض لفظٌ يسقط البتّة، ولا معنى يبور حتّى لا يصلحَ لمكانٍ من الأماكن» (٤٦)

فلكل لفظ مناسبة، ولكل معنى ظرف يستحقه. وإن مستوى الكلام يعني الأساليب التي تختلف لدى مستعمل اللغة الواحدة تبعاً للموقف الذي يتحدث فيه، ويجب على الإنسان أن يكون حساساً للفروق بين طبقات الناس حتى يتجنب انقطاع الاتصال وسوء الفهم. ومن خلال ما نقله الجاحظ من القصص التي تصور هذا الحالة تبين أن ما ينجم عند عدم التفريق بين مقتضيات الحال ومستويات المستمعين يؤدي إلى حرج.

لأن المطابقة بين الكلام والمستمع إذا تمت على الوجه السليم «كان قميناً بحُسن الموقع، وبانتفاع المستمِع»(٤٧) وتمت الغاية التي ينشدها المتكلم. «ويكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق»(٤٨) كما ذكر أبو عثمان. وبذلك يتبين لنا أن الجاحظ ألم بمرتكزات عملية التواصل من جميع جوانبها، وعرف البلاغة من خلال رؤية تداولية، ونظر إلى الصحة النحوية من منظور الكفاءة التداولية.

وراعى المبادئ التداولية للتخاطب، وأوجب على المتكلم والمخاطب أن يتعاونا على تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه.

كما أن عناية الجاحظ بالمطابقة اتخذت جميع المناحي، فعني بالمطابقة الفنية، فالسخيف للألفاظ يصلح للسخيف من المعاني، ومطابقة الألفاظ للسياق فلكل مقام مقال، ومطابقة الفعل الكلامي لمفردات السياق، كمراعاة المخاطب وحاله ومستواه وغير ذلك.

و لن يعوز المستطلع «للبيان والتبيين» الدليل في أن سياق الحال كان أصلاً مهماً وركناً مؤثراً في أي موقف كلامي وأي عملية تخاطبية، واستشعار الجاحظ له في سياق سرده للمواقف التي يحكيها وينقدها، وإن لم يصرح به تصريح اللسانيات الاجتماعية أو التداولية.

قائمة المصادر والمراجع:

- الأسس الأبستمولوجية والتداولية: د. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٧.
- الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: د.تمام حسان، عالم الكتب-القاهرة، ١٤٢٠/٢٠٠٠.
- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: د.نايف خرما، سلسلة عالم الفكر-الكويت، ١٩٧٨.
- البيان والتبيين للجاحظ: تحقيق الشيخ عبد السلام هارون. دار الجيل-بيروت.
- التحليل اللغوي للنص-مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج: كلاوس برينكر، ترجمة د.سعيد بحيري. مؤسسة المختار- القاهرة، ط١، ١٤٢٥/٢٠٠٥.
- تطور علم اللغة من ١٩٧٠ م: جرهارد هلبش، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق – القاهرة، ط١، ٢٠٠٧.
- تعليم العربية لغير الناطقين بها، مناهجه وأساليبه: د.رشدي طعيمة، د. محمود كامل الناقة، المنظمة

الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط ١٩٨٩.
× الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط٣، ١٣٨٨/١٩٦٨.
× الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط٣، ١٣٨٨/١٩٦٨.
× علم اللغة الاجتماعي: هدسون، ترجمة د.محمود عبد الغني عياد، دار الشئون الثقافية العامة.ط١، ١٩٨٧م
× علم النص ونظرية الترجمة : د.يوسف نور عوض، دار الثقة، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠.
× الكفايات التواصلية والاتصالية- دراسات في اللغة والإعلام: د.هادي نهر، ط١، دار الفكر –عمّان، ٢٠٠٣.
× اللسان والميزان أو التكوثر العقلي : د.طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٨
× اللغة العربية في إطارها الاجتماعي: مصطفى لطفي، معهد الإنماء العربي، ط١، بيروت ١٩٧٦
× اللغة العربية معناها ومبناها: د.تمام حسان، عالم الكتب، ط٣، ١٤١٨/ ١٩٩٨.
× اللغة بين المعيارية والوصفية ، د/ تمام حسان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨ م.
× مدخل إلى علم اللغة : د.محمود فهمي حجازي، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨
× المقاربة التداولية: فرانسواز أرمينكو، ترجمة وتحقيق: سعد علوش، دار الإنماء القومي، ١٩٨٧.
× مقدمة في علم اجتماع اللغة: د/ محمد حافظ دياب، مؤسسة الأنوار الرياض د.ت.
× مناهج البحث في اللغة: د.تمام حسان، دار الثقافة- الدار البيضاء، ١٤٠٠.
× الموسوعة اللغوية: ن.ي.كولنج، ترجمة: د/محيي الدين حميدي، ود/عبدالله الحميدان. طباعة ونشر:جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ
× النص والخطاب والاتصال: د.محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي بالقاهرة، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥.

الهوامش

(١) المقام هو الاسم الشائع له في تراثنا البلاغي واللغوي، وله تسميات أخرى، منها الموضع والحال والمشاهدة. ويجدر التنبيه إلى أن لغوييننا السابقين (وخصوصاً البلاغيين) كان لهم نظرة متقدمة لم تأخذ حقها من الكشف والبحث في الدراسات اللسانية الحديثة. والأمثلة كثيرة على أصالة هذا المبدأ الفني في التراث البلاغي العربي، نجده واضحاً عند الجاحظ –كما سيأتي- وكذا ابن قتيبة وعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني، بل الكتاب لسيبويه كان يحوي إشارات كثيرة إلى سياق الموقف التي تلفظ فيه المنطوقات. وقد أشار إلى ذلك الدكتور تمام حسان بأنَّ البلاغيين عند اعترافهم بفكرة «المقام» كانوا متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعدُّ الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجةً لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة.

وحين قال البلاغيون «لكل مقام مقال» ولكل كلمة مع صاحبتها مقام» وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء، ولم يكن «مالينوفسكي» وهو يصوغ مصطلحه الشهير: context of situation يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها» كما يعبر تمام حسان (اللغة العربية معناها ومبناها:، ٣٣٧، عالم الكتب، ط٣، ١٤١٨/ ١٩٩٨).

(٢)انظر : مناهج البحث في اللغة: تمام حسان ٢٩٥، دار الثقافة-الدار البيضاء،١٤٠٠. واللغة العربية معناها ومبناها: د.تمام حسان (ص:٣٣٧) ، عالم الكتب، ط٣، ١٤١٨/ ١٩٩٨. وأضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: د.نايف خرما، ص:١٢٣، سلسلة عالم الفكر-الكويت، ١٩٧٨. الأصول: د.تمام حسان (ص:٣٣٣) عالم الكتب-القاهرة، ١٤٢٠/٢٠٠٠.

(٣) انظر: مقدمة في علم اجتماع اللغة: د/ محمد حافظ دياب ، ص ٢٦٤، مؤسسة الأنوار الرياض د.ت. واللغة العربية معناها ومبناها (ص:٣٥١،٣٥٢). ومدخل إلى علم اللغة : د.محمود فهمي حجازي (ص:١٦١) دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨. وأضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة:١٢٣

(٤) اللغة العربية في إطارها الاجتماعي: ٣٢ مصطفى لطفي، معهد الإنماء العربي، ط١، بيروت ١٩٧٦

(٥) الكفايات التواصلية والاتصالية- دراسات في اللغة والإعلام: د.هادي نهر (ص:٨٨) ، ط١، دار الفكر – عمّان، ٢٠٠٣ م/١٤٢٤هـ.
وتعلم اللغة اتصاليا: طعيمة والناقة (كتاب إلكتروني)

(٦) انظر : النص والخطاب والاتصال: د.محمد العبد (ص٥١،٧٣) الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي بالقاهرة، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥.

(٧) البيان والتبيين للجاحظ: (١/ ١١٦) تحقيق الشيخ عبد السلام هارون. دار الجيل-بيروت.

(٨) الخرق : الدهشة والحيرة.

(٢٥) البيان:١/٨٨-٨٩ .

(١٠) انظر: التحليل اللغوي للنص- مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج: كلاوس برينكر، ترجمة د.سعيد بحيري (ص:١٧٨) مؤسسة المختار- القاهرة، ط١، ١٤٢٥/٢٠٠٥.

١١) البيان والتبيين: ١/١١٥-١١٦

(١٢) علم اللغة الاجتماعي: هدسن، ترجمة د.محمود عبد الغني عياد (ص:١٧٩) ، دار الشئون الثقافية العامة.ط١، ١٩٨٧م

(١٣) البيان والتبيين: ١/٤٤.

(١٤) السابق: ١/ ١٣٦.

(١٥) السابق، الصفحة نفسها.

(١٦) السابق:١/٩٣.

(١٧) اللغة بين المعيارية والوصفية ، د/ تمام حسان ، ص: ٥٧ . مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨ م.

(١٨) الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون (٣٩/٣) ، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط٣، ١٣٨٨/١٩٦٨.

(١٩) التقعير: وهو نوع من التعبير كأنما يستخرجون ألفاظهم من قعر بئر.

(٢٠) التشديق: من كلمة شدق وهي زاوية الفم، ومعناها التكلم مع اتساع زاوية الفم دلالة على التكلف والمبالغة، والتقعيب مرادفة للتشديق.

(٢١) البيان والتبيين:١/١٤٦.

(٢٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٢٣) السابق، الصفحة نفسها.

(٢٤) البيان والتبيين:١/١٤٥-١٤٦

(٢٥) الحيوان: ١/٢٨٢

(٢٦) اللسان والميزان: د.طه عبد الرحمن (ص:٢٣٧).

(٢٧) السابق : الصفحة نفسها.

(٢٨) السابق : الصفحة نفسها.

(٢٩) السابق (ص: ٢٩٦).

(٣٠) اللسان والميزان: ٢٤٠.

(٣١) البيان والتبيين:٢/٢٩٠

٣٢)) السابق:٢/٣٣٠

(٣٣) علم اللغة الاجتماعي: ٨٢.

٣٤)) البيان والتبيين:١/٩٢- ٩٣

(٣٥) السابق:١/ ١٣٦.

(٣٦) انظر : النص والخطاب والاتصال: ص ٧٥ .

(٣٧) السماط الجماعة من الناس والنحل، ويراد الجماعة من الناس الذين يصطفون يمينا وشمالا.

(٣٨) البيان والتبيين:١/ ١١٦.

(٣٩) النص والخطاب والاتصال: ٦٤.

(٤٠) البيان والتبيين:١/١١٦.

(٤١) السابق:١/١١٧.

(٤٢) الحيوان: ١/ ٩٢ .

(٤٣) البيان والتبيين: ٢/٣١٥.

(٤٤) السابق: ١/ ١٣٦

(٤٥) انظر: علم اللغة الاجتماعي : هدسون، ص١٨٩ .

(٤٦) البيان والتبيين:١/ ٩٣.

(٤٧) السابق : ٢/٨.

(٤٨) السابق: ١/٨٧.